مُحَمَّد شَفِيق غُرْبال

أُسْتَاذُ جِيلٍ وصَاحِبُ مدرسة(١)

أ.د. أحمد عزت عبد الكريم

(١٩٠٩-١٩٨٠م)

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - جامعة عين شمس

ورئيس مجلس إدارة الجمعية التاريخية الأسبق

رحمه الله

(١) محاضرة أُلقيت في الجمعية التاريخية في الموسم الثقافي ١٩٧١-١٩٧٢م .

obeikan.com

obeikan.com

كانت مهنة التعليم العمل الذي راق لشفيق غربال ، جعل منه رسالة حياته منذ التحق بمدرسة المعلمين العليا في سنة ١٩٢٢. لم يصرفه بعد تخرجه فيها عن مهنة التعليم عمل آخر أو منصب من تلك المناصب الكبيرة التي وليها بعد انتقاله من الجامعة مستشارًا للمعارف أو وكيلًا لوزارة الشئون الاجتماعية، فقد ظل على صلة بتلاميذه يعلمهم ويزكيهم ويأخذ بأيديهم في طريق العلم والمعرفة. سأله يومًا أحد (المتحذلقين) من الأجانب عن آخر مؤلفاته، وكان في مجلس العلم من تلاميذه، فأشار إليهم قائلًا: « هؤلاء هم كُتبي » : وما أكثر ما عَمِل شفيق غربال في تكوين شخصية المشتغلين بالدراسات الإنسانية في جيلنا المعاصر ، وعن طريق هذا الجيل سينفذ أثر شفيق غربال إلى الأجيال القادمة.

أجل . لم تكن مؤلَّفات شفيق غربال ومُصَنَّفاته هي وحدها ما أنتج ولكن كان منها - بل لعل أهمها - تلاميذه الذين تشرَّبوا ما استطاعوا روحه وحاولوا جهدهم أن يرتفعوا إلى مستوى فكرة ليلحقوا به ويفهموا عنه، وينشروا بين الدارسين ثمرات فكره ونبضات عقله، فكان بحق أستاذ جيل وصاحب مدرسة فكرية، لها في دنيا البحث التاريخي قَسَمَاتها ومميزاتها.

وكم من مُريدٍ حاول (الالتحاق) بهذه المدرسة فلم تؤهله لذلك قدراته العقلية أو صفاته الخلقية فالتوىٰ به القصد وَوَقَف دون إكمال الطريق.

وكان لشفيق غربال صاحب المدرسة الفكرية من مواهب: حُبٌّ عجيب للاطلاع يكاد ينتظم أكثر فروع المعرفة الإنسانية ، بعضه تخصص له حتى أصبح فيه علمًا ، وبعضها أَلَمَّ به إلمام العارف الخبير . وهذا الشمول في المعرفة الإنسانية مَكَّن غربال من القُدْرَة على توجيه تلاميذه وإفادتهم ما يكادون يعرضون عليه أمرًا من الأُمور استشكل عليهم حتى يجدوا عنده الرأي الناضج والتوجيه السديد، يجري في ذلك كله في لطف وأناة ، كما يجري الجدول الصافي دون ضجة أو صخب أو افتعال أو تعال.

وقد يغيب عنه الرأي أو يفوته التفصيل فيقوم إلى مراجعه ومظانه ويعكف مع تلاميذه على البحوث والمراجعة حتى ينتهي إلى ما يطلبون.

ولم يكن غربال يَضِن على أحد بما يعلمه ، لم يصد عن بابه طالب علم، وإنما كان يمنحهم مـن ذات عقلـه ما يُنير لهم السـبيل . ودان الجميـع له بهذه الزعامة الفكرية، التي أهَّلت شـفيق غربال ليكون صاحب مدرسـة في التاريخ ودفعت تلاميذه إلى السَّعي للحاق به والسّمو إلى قُرب قمتـه وسـبيلهم إلى ذلـك الحرص على الإجـادة في كل ما يأخذون به أنفسـهم مـن علم أو عمل، فيكـفي أن يعرفـوا أن (عين) شـفيق غربال عليهم حتى يتوخـوا الدّقة ويتسـابقوا إلى الإجادة. وهكذا كان وجود شفيق غربال في حَدِّ ذاته عاصمًا لتلاميذه من التهافت أو لغو البحث .

وكل ما نرجوه أن يظل تلاميذه وتلاميذ تلاميذه مَنْ بَعْده حَرِيصين على المستوى الذي اعتاده رائدهم ومُربيهم. وهكذا يؤدِّي أستاذ الجيل وصاحب المدرسة رسالته في حياته وبعد مماته.

وكان شـفيق غربال بهذا شـديد التأثير على تلاميذه، قد تكفي منه عبارة أو إشـارة إلى أحد تلاميـذه حـين كان يراجـع معه بعض أعمـاله لتفتح هذه العبارة أو الإشـارة أمـام التلميذ آفاقًا واسعة للبحث أو تُلهمه أفكارًا جديدة لم يتَّجه إليها تفكيره من قبل.

وهـذا التأثـير العلمي امتـد إلى التأثير الخلقي والمزاج أيضًا. فقـد كان كل من تلاميذه يحرص على أن يكون في نفسـه (بعض) من شـفيق غربال أو قبس منه . لم يكن هذا التأثير أو هذا التأثر قصدًا من الأسـتاذ، فقد لا تجد أشـد من شـفيق غربال نفورًا من سياسة (صب القوالب) والتعصـب والتقليد. كان شـفيق غربال يؤمن إيمانًا صادقًا بحرية الفكـر وبالفروق بين الأفراد وبما في اختلاف الأمزجة والطباع وتعدد مناهل الفكر والثقافة من ثروة للإنسـانية عامة.

لهـذا لـم يكن غربال صورة لأحد من أسـاتذته؛ وقـد قيل الشيء الكثير عن تأثره بأسـتاذه المؤرخ الإنجليزي الكبير « أرنولد توينبي » الذي أَشْرَف على دراسته العليا بإنجلترا في صدر شبابه وظل متصلًا به حتى وفاته. ولكن شـفيق غربال- على احترامه العميق وحبه الشـديد لأسـتاذه لم يذهب في تفسير التاريخ أو كتابته مذهبه، وإن تأثر باتجاهه الحضاري والإنساني ومنهاجه في البحث، وهكذا أراد غربال لتلاميذه ألا يكونوا صورًا منه.

كان غربـال يسـتمع إليهم ويحترم آراءهـم، رضي عنها أو لم يرض ، يعرف في كل منهم قدراته

فيوجهـه نحو تنمية ملكاتـه وتذكية خصائصه، وقد يعرف عيوبه فـلا يبخل في النصح ولكنه لا يطلـب الكمال. بل لقد بلغ من شـدة احترامه للرأي أنـه كان ينتهي من كتابة المقال أو الحديث فلا يدفعه إلى النشر إلا بعد أن يقرأه على بعض طُلابه ويستمع إلى رأيهم وكثيرًا ما أخذ به.

كان شفيق غربال يفعل ذلك على شدة اعتداده بنفسه وثقته في قُدراته العقلية، اعتدادًا وثقة ربمـا ظنهما بعـض الناس كبراً، وما هو من الكبر في شيء، ولكنه الإبـاء ورِفعه النفس والأَنَفَة والترفُّع عن الصَّغار، امتزج هذا كله في شفيق غربال بالصِّدق والوفاء والنُّبل والسماحة والمروءة ورِقّة الحِسّ ولطف الذوق ونفوذ البصيرة، امتزجت جميعها على نحو لا نـكاد نجده إلا في القليل من الناس.

وليس من شك أن لون الدراسة الذي اختاره شفيق غربال لنفسه كان أحد العوامل الرئيسية المؤثرة في شخصيته. لقد اختار غربال الدراسات الإنسانية، والتاريخ منها بصفة خاصة، لتكون محور حياته العقلية .

آمـن شـفيق غربال بالإنسـان إيمانًا شـديدًا . آمن بقدراتـه ونقائصه ، آمن بقيمة الإنسـان وقدرته على التغيير في مصير عصره وأمته، وآمن بضرورة الحرية للإنسـان في نفسـه وفي علاقته بغـيره حريـة لا يحد منهـا إلا حرية الآخريـن. ومن هنا كان احتفال شـفيق غربال بالدراسـات الإنسانية واتجاهه إليها منذ صدر شبابه .

فاتَّجه أول ما اتَّجه إلى قراءة السِّـير ، ولقد ذكر لي يومًا أنه قرأ – وهو لا يزال بعد في المدرسـة الثانويـة أو التجهيزيـة كما كانت تدعى في تلك الأيام- كتاب « وفيـات الأعيان لابن خلكان » وغيره من كتب السِّير والتاريخ، وهي كتب لا تزال (نُحَرِّض) طلابنا في الجامعة على النظر فيها فلا نـكاد نبلغ من ذلك شيئًا .

ثـم أتمَّ دراسـته الثانوية وأراد له أهله أن يتَّجه إلى دراسـة الحقوق كمـا فعل أخوه الأكبر أو إلى الهندسـة أو الطب ، ولكـن شـغفه بالدراسات الإنسـانية دفعه إلى مدرسة المعلمين العليا أو المعلمين الخديوية كما كانت تُدْعَى في تلك الأيام ، وكان أسـاس اختياره أن هذه المدرسـة- كما

قال في بعض ما كتب: «كانت مع التزامها بإعداد المعلمين في أضيق الحدود، المعهد الوحيد في مصر إذ ذاك الذي يصلني بالدراسات الإنسانية، وتم لي أن مكنتني المدرسة من متابعة تلك الدراسات على نطاق أوسع في المعاهد الخارجية وتهيأ لي ذلك الإطار الذي أعمل فيه مواطنًا مصريًا وإنسانًا جادًا في أن يجعل حياته جديرة أن يحياها»(١).

المواطن والإنسان: هذا ما أراد شفيق غربال أن يكونهما، وقد كوّنَهُمَا بحق، ولكنه لم يكنها عاطفة وعشقًا فحسب، وإنما سعى إلى دعم هذه العاطفة وهذا العشق وتنميتها بالدراسة العلمية الجادة، وليس أعظم من (التاريخ) درسًا وتأليفًا وقُدرة على تنمية العاطفة الوطنيةوالإنسانية.

دَرَسَ غربال التاريخ وغيره من فروع الدراسات الإنسانية في مدرسة المعلمين ثم أكمل دراسته العليا بحصوله على درجة الماجستير في التاريخ من جامعة لندن، ثم عاد شفيق غربال إلى وطنه لتدريس التاريخ في مدرسة رأس التين الثانوية، ثم مدرسة المعلمين العليا.

ثم كانت النقلة الكبرى، في حياته العلمية حين عُيِّن أستاذًا مساعدًا للتاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) في أكتوبر ١٩٢٩ ثم أصبح بعد بضع سنوات أوَّل أستاذ مصري للتاريخ الحديث بالجامعة.

وقد فتحت أمامه هذه النقلة أبواب البحث العلمي على مصراعيها، وخاصة بعد إنشاء الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه بالجامعة. وكانت شهرته العلمية والخلقية قد سبقته إلى الجامعة وطلابها قبل أن ينقل إليها، وكنا جميعًا نحسد طلاب المعلمين العليا على أستاذهم الشاب النابه فلما انتقل إلى الجامعة أقبلنا عليه وأقبل علينا، وبدأت تتكون هذه المدرسة التاريخية التي ظلت موجاتها وإشعاعاتها تعمل إما عن طريقه مباشرة أو عن طريق تلاميذه، فكان بحق أحد أساتذة الجامعة القلائل الذين كونوا لهم مدارس فكرية تقوم على التعلق العلمي

(١) من مقال للأستاذ شفيق غربال بعنوان: «الحياة جديرة بأن نحياها» في كتاب «علمتني الحياة» الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٥٨ من منشورات مؤسسة فرانكلين بالاشتراك مع دار الهلال.

والخلقي للتلاميذ بأستاذهم ومُربيهم ورائدهم تعلُّقًا قد يصل إلى حد (الهيام الصوفي) .

ويكفي أن نذكر أن شفيق غربال لم يَكُف عن التدريس والاجتماع بطلابه في الجامعة أو معهد الدراسات العربية منذ تعيينه في الجامعة في ١٩٢٩ قبيل وفاقته في أكتوبر ١٩٦١ لم يصرفه عن ذلك أي عمل إداري تولّاه في الجامعة أو خارج الجامعة.

ولن أتتبع في هذه الكلمة ما كتبه شفيق غربال أو ألَّفه، فإني تارك هذه المهمة لإخواني المشتركين في هذه الندوة ولكني أحب أن أشير هنا إلى أن مؤلفات شفيق غربال ليست كل ما كتب .

وإني لأنتهز هذه الفرصة لأدعو تلاميذ شفيق غربال إلى أن ينهضوا ليجمعوا المقالات المتفرِّقة التي نشرها في كثير من المجلات والمحاضرات التي ألقاها في معاهد العلم وفي الإذاعة وفي الهيئات العلمية التي أسهم في عضويتها : الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، والمجمع العلمي، ومجمع اللغة العربية ، ومعهد الدراسات العربية ، إلى جانب المقدِّمات التي وَضَعَها لكُتب تلاميذه مؤلَّفةً أو مُتَرجمةً ، ويوم أن تجمع هذه المتفرقات سيعرف الناس أي رجل كان شفيق غربال الباحث المؤرخ أستاذ الجيل وصاحب المدرسة التاريخية الحديثة في مصر والعالم العربي.

ولقد كان تلاميذ غربال وأصدقاؤه يُشْفِقُون عليه من الجهد المضني الذي كان يبذله في هذه الهيئات العلمية جميعاً، تدريسًا وبحثًا وقراءة وكتابة ومراجعة، كان تلاميذ غربال وأصدقاؤه لا يرونه، وخاصة بعد أن حرمه القدر شريكة حياته يوم انتهت خدمته الحكومية عام ١٩٥٤ إلا منكبًا على الدرس والقراءة في حديقة منزله الجميلة أو في مكتبته العامرة أو في دار من تلك الدور العلمية التى كان يتردد عليها، يفعل ذلك في ثقة وصفاء ونفس وسماحة وإقبال على الحياة وإيمان بها عبر عنها بقوله : « إنني منذ وعيت ، ومنذ أخذت أنظر في نفسي وفي ما حولي، ومنذ حاولت الوقوف على أسرار الأصول والمصادر وجاهدت لأُقَيِّم أفعالي على أساس من المعقولية وأُوجهها إلى غايات مفهومة أيقنت أن الحياة تستحق أن أحياها وأن نَظْرتي هذه إليها خليقة بأن تكون سلوكي في فترة العمر وأن تُنَظَّم على أساسها العلاقة بيني وبين الناس » .

Obeikan.com

حقاً.. لقد عاش شفيق غربال حياته « على أساس من المعقولية » مستهدفًا غايات مفهومة، هذه هي الحياة التي عاشها شفيق غربال بقلبه وعقله مُقْبلًا عليها مُقَدِّرًا مُتْعتها ، صابرًا على شِـدَّتها، لم يعش غربال حياته لنفسه وحدها ولا لأسرته وحدها، ولكنه عاشها لأسرة كبيرة قـد يكـون منها من لم يَره غربـال أو من لم يَر غربال في حياته ولكنـه تتلمذ عليه دُون أن يَراه، فتأثرَّ به وتعلَّق به، هي أسرة الدراسات الإنسانية عامة، والتاريخ خاصة، في مصر والعالم العربي الكبير.

٦/١٢/١٩٧١م

⊙⊙⊙

obeikan.com